حقيقةُ اليوتوبيا و أكاذيبُ التاريخ

د. عبد القادر رابحي.[1]

كيف يمكن تحديد العلاقة بين اليوتوبيا والتاريخ؟ و مَنْ مِنَ التاريخ أو اليوتوبيا أكثر حلُماً بالآخر؟ و هل يمكن اعتبار اليوتوبيا مقدمة سابقة للفعل التاريخي و هو آخذ طريقه إلى التحقق في الواقع، و لكنها تُكتب في آخر هذا الفعل؟ أم أن التاريخ هو السابق في رسمه لملامح اليوتوبيا بالنظر إلى ما لم يستطع رجالاته تحقيقه على أرض الواقع، و من ثمة يكون هو المؤسس الأول لطموحات من تلعب برؤوسهم مكائد التاريخ جراء خذلان معرفيّ، أو نزوة جسدية، أو نعرة قبلية، فتؤدي بهم إلى استباق الواقع بناءًا على ما يفرضه عليهم من دروس يعتقد هؤلاء الطموحون أنه من اللازم أخذ الاحتياط في احترام دفتر شروطها اتقاءً لقدرته على تحويل دروسه إلى مكائد، و عِبَرِه إلى مصائد، و أحداثه إلى روايات مأساوية عظيمة يتلقفها المبدعون المحاذون للسلاطين فيجبرون القراء على الإيمان المسبق بجدوى تحقق الحلم النابض في جوف الثورات القادمة؟

ثنائيةٌ تبدو متضاربة في ما يؤسس لوجود طرفيها تماما كما التضارب بين الحلم و الواقع. كل محاولة للدمج النهائي بينهما تبدو و كأنها خيانة لهذه الأسس التي بُنيت عليها نظرا لاستحالة التوحيد بينهما. و كل فصل نهائيّ بينهما لا يمكن أن يتحقق نظرا لإيغاله في مثالية تتجاوز ما يمكن أن تحمله كلمة (اليوتوبيا) من معان لم تقطع علاقتها النهائية بالواقع نظرا لاستحالة التفريق بينهما، حتى ليبدو أن التاريخ لا يمكن أن يكون إلا يوتوبيا غير مكتملة، و أن اليوتوبيا لا يمكن أن تكون إلا تاريخا غير مكتمل هو الآخر.

---

[1] كلية الآداب و اللغات و الفنون جامعة سعيدة. الجزائر

غيرُ مكتمل(ة) تعني في ما تعنيه كذلك مشوّه(ة) في الأصل، أي مشوّه بالصورة التي لا يجب أن يتحقق بها سواء أكان تاريخا طامحا إلى الكمال أم يوتوبيا حالمةً برؤيةِ نفسها تتجوّل في شوارع مدن الملح المأسورة بين ماسورة بندقيةٍ و كاميرا حراسة في شارع من شوارعها يحمل اسم زعيم ثوري سابق.

لقد تحولت الكثير من أحلام اليقظة في يد الحكام عبر العصور إلى دكتاتوريات اختلطت فيها فكرة الحلم كما تحمله اليوتوبيا نظريا بوصفها (لا مكان) بما يحمله المكان من ثقل واقعي يسيطر على خيط الحلم العابر للذات الحالمة و يُخضعها إلى مقاسات الواقع من أجل صناعة تاريخ على المقاس. و لعله لذلك، يحمل التاريخ في رواياته المتخفية، الشفوية غير المروية، و المرويّة غير المكتوبة، و المكتوبة غير المحققة، و المحققة غير المطبوعة، و المطبوعة غير الموزعة توزيعا شاملا، العديد العديد من اليوتوبيات التي أودعها صانعوها في حَرَجِ اللحظة التاريخية و هي تخضع تحت مشرط أفكارهم المثالية إلى عمليات جراحية حوّلت التاريخ إلى مجرد أكاذيب مُرَسّمة تردّدها الأجيال في فناءات المدارس كما لو أنها حقائق حدثت فعلا في يوم ما على أرض الواقع بالطريقة التي يروونها بها.

هل يمكن لليوتوبيات أن تولد في غير أذهان الكتّاب و المبدعين عبر العصور؟ و هل لها أن تبقى (يوتوبيا) فعلا إذا ما أعيد كتابتها من طرف من يعتقدون من الكتّاب و الفلاسفة و المفكرين أنهم أحق بالتنظير لها في حين أنهم لم يكونوا في كلّ ما كتبوه عنها غير رواة مخلصين، إما لما حققه صُنّاع التاريخ بوجهة نظرهم من ذوي أحلام اليقظة من شرخ حالم في الواقع، أو لما توهموا أنه الحلم الطوباويّ الواجب تحقيقه من خلال المرور القسري بالدهاليز المظلمة التي تفصل حقيقة اليوتوبيا عن أكاذيب التاريخ. فهل لها أن تتحقق في غير ما يدل عليه معناها؟ و هل يمكن للتاريخ أن يتطهر مما لحق به من دنس جرّاء إصرار الحالمين الكبار على تشكيله وفق إراداتهم الممزوجة بأمزجة اللحظة المتغيرة و بخلفيات المصلحة المتخفية بعناية في ثنايا الحلم الهارب من بين أيدي الفقراء إلى السلطة، سلطة التكريس السرمدي

في مدونة التاريخ و هو يخبر بعد مرور هالة الانتصار على الحقيقة، عن صدأ ما خبّأه للأجيال القادمة من أحلام غير منجزة، و عن رتابة ما دبّجه لهم من أناشيد لا يستسيغ سماعها الضوء؟

فهل كان كل هذا الحشد الكبير من الفلاسفة والمفكرين والمبدعين بمختلف اتجاهاتهم مخطئين عندما أرادوا أن يجعلوا من (اللامكان) فضاء لتحقيق أحلامهم و تحويلها إلى واقع ملموس؟ و هل كانوا فعلا واقعيين عندما أرادوا أن يتخلّوا عن الواقع بكل ما يحمل من ثقل وجودي، نظرا لعدم قدرتهم على تصور علاقة حقيقية بين الحلم بوصفه يوتوبيا مجنحة و بين الواقع بوصفه مكابدة بائسة؟ و هل يمكننا أن تصور مسافة فاصلة، أو "منطقة وسطى" على حد تعبير الشاعر العربي نزار قباني، بين جنة الحلم و نار الواقع؟

ربما نكاية بها و مكرا و تنكيلا، لا يمكن أن نتصور التاريخ و هو يقدم ورودا حقيقية أو حتى بلاستيكية لتهنئة (اليوتوبيا) على ما قدّمته له من خدمات عبر كل العصور التي مرّا بها متلازمين غير متباعدين في احترامهما للمسافة الرابطة بين مفهوميهما و الفاصلة بين ما يخفيانه من تناقضات كأنهما خطّا سيْرٍ لا يلتقيان. كما لا يمكننا أن نتصور، نحن الغافلين عن فهم طبيعة ما يمكن أن يعتلج داخلهما من غيرة وجودية ناتجة عن قصة عشق سريّة بينهما، أن التاريخ قد كان فعلا (يوتوبيا) ذات يوم، و أن الكتبة، كلّ الكتبة بمن فيهم كتبة الرواية -رواية التاريخ طبعا- قد رسّموه واقعا على الورق الأبيض الناصع بأمر من أولي الأمر و النهي، صانعيهما معًا.

ألم يستنجد أبطال اليونان بالسمّاء لكثرة ما تحطمت أحلامهم الكبرى في السيطرة على قلعة (طراودة) الحصينة ثم نكران ردّ الانتصار أو جزء منه إلى الآلهة اليونانية مما أدّى بـ(أوليس) فيما بعد إلى دفع ضريبة استحواذ المفاهيم الأرضية على أخواتها السماوية فمارس جرّاء ذلك يوتوبيَاهُ الوجودية في بحر المغامرة الحالمة

المتحدية للعراقيل الأرضية المتمثلة في ما سلطته عليه الآلهة الغاضبة من عذابات بحرية؟

وماذا لو لم تكن (اليوتوبيا) بالمختصر المفيد غير مجموعة من الجنود المختبئين في جوف حصانٍ خشبيٍّ ينقلبون فجأة على مجريات التاريخ كما خطط لها من سبقهم، و يجبرون الشعوب بعد ذلك على الاقتناع بأحقية تصحيح المسارات الثورية المائلة إلى ما يشبه الفيوضات الشخصية لمؤسسيها الأوائل؟ ألا يحدث هذا كلّ يوم في جمهوريات الموز؟ ألم يكن مصرع (أخيل) في كعبه؟ ألم يقلب الأبناء على آبائهم؟ ألم يسقط الملوك بمكائد المنحدرين من سلالاتهم؟ و ماذا لو لم يحرق نيرون روما؟ ماذا لو لم تسقط بغداد تحت قصف افتراضيّ عنيف صُوّر على حين غفلة في استوديوهات هوليوود العربية؟ و ماذا لو لم ترضخ طرابلس لحيلة صبيانية مشابهة؟ و ماذا لو لم تكن دمشق تحترق بنيران الإخوة الأعداء جرّاء حلم سيتبيّن بعد انتهاء المعركة و انتهاء حلم الحالمين، أنها لم تكن أكثر من حلم بائس حاول تحقيقه من تراودهم أحلام اليقظة بصورة مرَضيّة دامسة؟

ربّما وُلدتْ الإيديولوجيات أصلاً في أذهان من نظّروا لها يوتوبياتٍ سرعانَ ما تحولت إلى أحلام يقظة ثم إلى واقع رابض في منتصف الطريق. و ربّما كان التاريخ، في حراكه العويص لتطويع البشر الخارجين عن طاعته و الراغبين في إخضاعه إلى طاعتهم، و في أحد أوجهه، مجرّد رأسمال ماركسيّ مستخلص من تراكم فائض الاستغلال الذي خلّد عائلة الملوك الانجليز. و ربما كان التاريخ مجرد مقدمة خلدونية كُتبت بعد كتابة التاريخ نفسه. ألم يخطئ ماركس في التنبؤ بتحقُّق يوتوبِيَاهُ في أنجلترا فَعُوِّض عن ذلك بما حمله له لينين من نبوءة كان قد سبقه إليها عرّاف القيصر(راسبوتين) قبل ذلك بكثير من التفاصيل الخيالية المحبوكة روائيا، و بقليل من الحيلة المتروكة للمؤرخين ليبتّوا في صحتها، فأدت إلى هلاكه مقتولا سنة واحدة قبيل هلاك آخر القياصرة الروس و انتصار الثورة البلشفية؟ ألم يكن ماكسيم غوركي عرّافا راسبوتينيّ التوجّه في الفترة نفسها؟ ألم تكن رواية (الأم)

وهي تأخذ طابع المباركة من لينين نفسه مجرد تعويذة متأخرة لما سيلحق بالظلم القيصري منْ ظُلْمٍ شيوعيٍّ أظلم منه أدى بالوجه الآخر لليوتوبيا، ألكسندر سولينيتسين إلى امتطاء روايته الكبرى(العجلة الحمراء) من أجل الفرار بجلده خوفا من المصير الذي انتهى إليه (راسبوتين)؟

ألم يجعل ابن خلدون (مقدمته) التي كتبها في آخر مشواره في البحث عن (العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) خلاصةً نظريةً حالمة لما يجب أن يتجنبه الحاكم المستقبلي الحالم بِلَيِّ عنق التاريخ لأن أحداث التاريخ سبق و أن لوت عنق أجداده في المجلد (كذا..) مما يحمله هذا العنوان الطويل الدّال على أسبقية الفعل على الحلم، و كذلك على أحقيته في صياغة اليوتوبيات المستقبلية صياغة مرجعية تستأثر بدافع العبرة الكامنة في الدرس الخلدوني، كما رواه هو الشاهد العابر للفضاء المغاربيّ عبورا مأساويا كاد أن يودي بحياته غير ما مرّة جرّاء تهالك ملوك اللحظة من غرناطة إلى فاس إلى تاهرت إلى القاهرة إلى دمشق، على مطاردة هذا الحالم العظيم و هو يعبر صغائر أحلامهم الكبيرة، فدوّن بحرقة و بمرارة مَا جرى لقبائل (كتامة) و (لواتة) و (مكناسة) و (زناتة) و غيرها مما لم يعد يطلّ عليه القارئ المعاصر من حراك حاول زعماؤه العابرون الحالمون هم كذلك أن يجدوا لهم مكانا في معترك أحداثه كما دوّنها ابن خلدون في تاريخه، و مكانةً في منتجع يُوتُوبْيَاهُ كما حدّد استراتيجياتها في مقدمته النظرية المشهورة؟

-4-

كثيرا ما حذّر المُحذِّرون، بناءً على تجارب سابقة مريرة، ممن تراودهم أحلام اليقظة لأنها أقرب إلى التحقّق من طرف هؤلاء الحالمين اليقظين المرابطين على تخوم التاريخ و الساهرين على ترصد ما يحدث من متغيرات على خطوط التماس الفاصلة بين أحلامهم و بين حراكِه التارك أمره لحالمين سابقين يعيثون في تفاصليه ما شاء لهم عمقُ خنادق المعارك المملوءة بالجثث البريئة التي لم تكن في بداية

الأمر، و في نهاية الأمر كذلك، غير لحم مدافع و عجين منجنيقات متأهبة لتسليط جام غضبها على الأحياء الفقيرة من مدن الملح التي لا تذوب حتّى تُذِيبَ كلّ حلم قابل للتحقّق فيها، و التي يختبئ فيها عادةً، نظرا لصلة الثائرين الوطيدة بالفقر، من كانوا و سيبقون دوما خطرا على خطر ما تحمله اليوتوبيا من وعود لا تتحقق إلا بتقديم نُذُر الدّماء إلى المعلّم الأول الذي هو التاريخ.

مرحباً باليوتوبيات إذن، إذا كانت تؤدي دائما إلى النتيجة نفسها. مرحبا بها في قصرها المبنيّ في باحة التاريخ من طموح الحالمين و دماء الملايين من أتباعهم من الجند المدكوك في مُبردات الوطن الكبرى لحوم مدافع تستنفر عند الضرورة . إنها في هذه الحالة بالذات، تعيد شحذ الوعي الضامر على مرأى من الأَسِرّة المنتشرة في المستشفى الكبير، لتهيئتها لخوض دورة أخرى من الدورات التي تحترمها الطبيعة احتراما دقيقا، و ذلك بإعادة ما يمكن للتاريخ أن يعيده على التلاميذ غير النجباء من درس مكرر، لعلهم ينجحون في دورة استدراكية تؤهلهم للدخول في منظومة التصور الجاهز الذي تفرضه الرواية الرسمية و ترفضه أوجهها الأخرى المخفية بعناية في الباحة الخلفية للحلم الوطني الجميل.